عم يتســـاءلون ؟

للأستاذ أحمد رمزى

مشاكل العالم الجديد — التوازن بين الكتل الثلاث الكبرى التى تسيطر على العالم — نظرة شرقية ...

حينما ندرس حالة العالم بعد هذه الحرب يتبين لنا بوضوح أن تاريخ الإنسانية لم يعرف عهداً مملوءاً بالانقلابات المتتابعة والتغييرات السريعة التى تتميز بخروجها عن كل قاعدة ، ومخالفتها للمألوف والمعهود مثل ما نراه أمام أعيننا اليوم

فهل يوسعنا أن نستخلص ، بعض القواعد العامة ، أو الاتجاهات ؟ أو نضبط شيئاً من العلائق التى تربط بين الأسباب وبعضها ، أو بين الأسباب والظواهر ؟ أو نستبق الحوادث فنكتشف شيئاً مما قد تأتى به الأيام المقبلة ؟

يصعب ذلك علينا نظراً لتتابع الحوادث ، ولكن الظروف التى مرت بالعالم بين حربين ، والدروس التى ألقاها علينا تاريخ المائة سنة الماضية ، قد تمهد لنا الطريق ، وتسهل لنا السبل لتكوين فكرة تقرب من الصواب ، بل يمكن أن تساعدنا على تحديد بعض النتائج التى حصلت عليها الإنسانية بعد خروجها من حربين عالميتين

كانت المائة سنة التى سبقت الحرب الماضية مملوءة بالحوادث الكبرى ، فهذه الفترة التى تقع بين ١٨١٥ — ١٩١٤ ، أى بين مؤتمر فينا وإعلان الحرب العظمى الأولى ، فترة فذة فى تاريخ البشرية : لأنها بدأت بتأكيد مبدأ القوميات والمناداة بتحرير الشعوب واستقلالها ، ثم خضعت لفكرة حفظ التوازن بين الدول الكبرى الأوروبية ، وكانت هذه المائة سنة فترة الثورات التى نقلت أوروبا من عهد الإقطاع وبقايا القرون الوسطى ، إلى عهد الصناعة الآلية وما يلازمها من تنازع الطبقات وتضخم المدن ونمو الرأسمالية وبروزها كعامل أساسى فى حياة الشعوب الأوربية

كانت هذه الفترة كل هذا ، ولكن ما هو أكبر مظهر لهذه المائة سنة ؟

لا يتردد الآن أى مخلوق فى أن يعترف أن هذه الفترة من الزمن كانت عصر التوسع الاستعمارى الجارف —

وما معنى هذا ؟ الذى يبدو لنا فى سنة ١٩١٤ ويمكن إبرازه ظاهراً ملموساً هو ما يأتى :

إن الدول التى توسعت فى أملاكها وازدادت علاقاتها بالأمم بيننا وبين هذا الشعب الإنجليزى الهائل ، فيجب أن نفهم كيف نستفيد من تلك العلاقات على اختلافها وتنوعها وكيف نستخدمها فى مصالحنا فردياً وأمميا .

إلى أن يقول : من العبث أن يستغنى الحجاز عن رواج اللغات الأجنبية ولا سيما الفرنسية والإنجليزية فى مدارسه ومجتمعاته ونواديه رواجا لا كرواج العربية لغة حياتنا الأولى ، لغة سيرتنا إلى الأمام وإنما أقول : لتتكلم اللغة العربية ولكن لتتعلم اللغة الأجنبية أيضا لنستفيد منها حضارة وعلوماً وأفكاراً » وقد تعلم بعض الحجازيين فى العهد الأخير بعض هذه اللغات ولكن هؤلاء لا يزالون أقلية ، وقد اعتمد كثير منهم فى تعلم اللغة الإنجليزية على السفر إلى الهند والإقامة هناك ، كما أن أهل المغرب الذين استوطنوا الحجاز حديثاً يعلمون اللغة الفرنسية إلى درجة يستطيعون بها الترجمة عن هذه اللغة .

وقد جعل جلالة الملك عبد العزيز تدريس اللغة الإنجليزية من منهجه الإصلاحى فاستقدم المدرسين المصريين لتدريس هذه اللغة بمدارس الحجاز ، واستطاع الطلبة هناك أن يعلموا منها ما يعلمه الطلبة المصريون فى المدارس الثانوية . ولكن هذا كله لا يعدو فى حاضره البذرة التى ستنمو وتثمر فى مستقبل الأيام ، ولم يظهر لتعلم هذه اللغة أثر يذكر فيما نحن بصدده وهو نقل الثقافات الأجنبية إلى اللغة العربية نقلا يتجلى فيه الإلمام والبراعة ، ولنا نستطيع أن نقول : إن ثقافتهم الأجنبية لا يقومون عليها بأنفسهم ولكنها تصل إليهم فى الكتب المصرية وغيرها . وسوف ينهض بهذا العمل الخطير فى المستقبل أعضاء البعثات الحجازية بعد أن يعودوا إلى بلادهم ، فيتحقق بذلك للبلاد المقدسة أملها البعيد ورجاؤها المحبوب

(القيوم الثانوية) أحمد أبو بكر ابراهيم

المحكومة ، قد أخذت تتحول من دول أوروبية إلى دول ذات صبغة عالمية !

كيف تم هذا التحول ؟ وكيف دخلت الدول الكبرى ميدان الاستعمار فأصبحت غير قادرة على التراجع والانكماش بعد أن ذاقت طعم حلاوته ؟ كل هذا يمكن درسه وبحثه إذا عرفنا شيئاً عن أثر المائة سنة الماضية وتطوراتها

ومن المسلَّم به أن بعض الدول كانت تملك المستعمرات ، وكانت تعرف طريقة الاستغلال — قبل المائة سنة التي أشرنا إليها — ولكن نشاطها كان محدوداً ، وفي دائرة ضيقة ، ولم يكن اتصال هذه الدول بمستعمراتها أو اعتمادها عليها بالقدر الذي وصلت إليه في الفترة الأخيرة ، بل حصل ما هو أكثر من ذلك ، إن البشرية لم تعرف زمناً ، في كل عصورها السالفة بلا استثناء . خضعت فيه شعوب العالم المختلفة بمدنياتها وتقاليدها ، بل وبمماشها لحكم الأوربيين مثل العهد الذي جاء بين ابتداء القرن التاسع عشر وابتداء القرن العشرين

ففي هذه اللفتة من الزمن ، اشتد التنافس والتسابق والتزاحم بين دول أوربا الكبيرة والصغيرة ، القديمة منها والناشئة ، لدرجة أن وصل إلى المناطق المتجمدة والصحارى القاحلة ، فأصبح الجليد والصخر والرمال ميداناً لكل هذا

فكل بحث أو دراسة لشئون العالم ، وكل قاعدة نستخلصها يجب أن يسبقها تعرف هذا التوسع وأثره وأهميته ، ولكي تعرف بالضبط العلاقة بين الشعوب المحكومة والحاكمة ، ولكي نحدد مركزنا وموقف الأجيال القادمة من هذه السيطرة وعلاقتها بآمال الشعوب ومقدراتها ومستقبلها

فلنتساءل عن أول أثر لهذا التحول أو التطور العالمي الذي أوجد أمماً قوية سائدة وأمماً ضعيفة خاضعة ؟

كان من أثر هذه السيطرة الأوربية أن فنيت بقايا المدنيات القديمة التي حملتها أراضي الشرق الأوسط والأدنى والأقصى ، بل اندثرت وتلاشت أمام مدنية الأوربيين وتفوقهم المادي والعسكري

هذا هو الأثر السلبي ، أما الإيجابي ، فقد كان من أثر هذه السيادة أن ازداد سكان المعمورة ، لأن سكان المستعمرات قد تكاثروا وتناسلوا فكثر عددهم وأصبحت هذه الزيادة في السكان مظهراً من مظاهر هذا الاستعمار الأوروبي ، والذي يدعو للدهشة أن هذه الزيادة في السكان لم تعرفها الإنسانية من قبل في أي عصر من عصورها السالفة

ثم كان من نتيجة هذه السيطرة وما تبعها من تنافس وتصادم أن ارتبطت أنحاء العالم بطرق مواصلات سهلة تعذر القيام بالثورات ، كما أثر على علاقات الشعوب المحكومة ، لأن هذه الأمم التي جهلت نفسها ، وجدت أمام سهولة الانتقال والتعارف في مركز يسمح لها أن تستعيد العلاقات والروابط التي كانت قائمة بينها ثم انقطعت

ولما استقرت سيادة الأوربيين وسيطرتهم على أنحاء الدنيا وأمنوا أن تقوم الشعوب ضدهم ، وظهر التفوق العسكري ، وعرفوا طريقة تجنيد المرتزقة وكتائب الجنود الملونة ، فألقى عليها عبء القتال واستتباب الأمن ، انتقل الاستعمار من ميدان الفتح واستعمال العنف إلى ميدان جديد : نعم اتجهت في النصف الثاني من القرن الماضي إرادة الدول المستعمرة إلى الاستعانة بالعلم والاقتصاد على تنظيم استغلال ثروات ومرافق هذا الكوكب الأرضي ، واقترن ذلك باندفاع نحو السير بهذا التطور الجديد نحو أهداف عالية ، أي اتجهت هذه الحكومات وهيئاتها الاستعمارية إلى تحقيق فكرة سيطرة الإنسان على أفق الحياة وإخضاع الطبيعة لسلطانه وإرادته بكل ما في العلم من قوة ثائرة وما في الاقتصاد من قوة منتجة

أما من الناحية السياسية ، فقد أخرج القرن الماضي لدى الدول التي تقدم لديها الوعي الاستعماري نشاطاً أشد خطراً وأعمق أثراً وهو الدراسات العلمية والنفسية وتطبيقها على إدارة المستعمرات وفي حكم الشعوب المغلوبة على أمرها

لقد أصبحت هذه الدراسات أقوى دعامات سيطرة الأوربيين ودليل تفوقهم ، بل برهان تمكنهم من قيادة الشعوب التي يحكمونها ، أو كأحدى مظاهر الطبيعة التي ألانوا قناتها وأخضعوها لمشيئتهم في عالم الجماد والحيوان

(للكلام بقية)

احمد رمزي